أن يستنفروا جميع الفعلة من البنايين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس، التي تحت نظر الموحدين - أعانهم الله - ويستعجلوا بالوصول إلى الجبل لامتثال الأمر الكريم، فاحتفل النظر وانجفل البشر لذلك من الأجناد والقواد والكتاب وأهل الحساب لتقييد الأشغال، والإنفاق على الأعمال، وبالتعجيل في ذلك والكمال.

وتقدم السيد الأجل أبو سعيد على ما أمر به من موضعه بغرناطة إليه، ومشى من اشبيلية العريف أحمد بن باسه[1] بجميع البنائين ومن يشاكلهم، ومن يعاونهم من الرجال ويماثلهم، ونزلوا فيه وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجمع عليه والاتفاق من نواحيه، بسيف البحر مما يلاصقه ويليه، [18] وزادت آمال أهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل، وكان من اشتغال السيد الأعلى أبي يعقوب رضي الله عنه باشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور.

وأحكم البناؤون فيه بناء من القصور المشيدة والديار[2]، واخترعوا في أسسها طيقاناً والحنايا لتعتدل بها الأرض مبنية بالحجر المنجور والجيار، مما هو عجيب في الآثار، وكما قيل: «الملوك تبني على قدرها من الأقدار»[3] وبما

---

(1) يعتبر ابن باسه من أبرز الخبراء الذين اعتمدهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى، وقد استفادوا من خبرته بالإضافة إلى ما هنا عند اتخاذ القرار بجعل قرطبة مقراً لصدور الأوامر، وعند صدور الأمر ببناء القصور الملكية بإشبيلية، وقد كان «شيخ العرفاء» وهو الذي قام بتشييد جامع إشبيلية الأعظم (الخير الدا)، وما تزال هذه الأسرة معروفة إلى الآن بالمغرب وإليها تنتسب فيما سمعت أسرة باسة المعروفة بالقيادة في ناحية تادلة ويوجد منها إلى الآن بمدينة فاس بعض البنائين المهرة من يعتمدهم القصر الملكي في مبانيه ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 66-322-330.

أنظر: P.J. Renoud. Notes critiques d'histoire des sciences chez les musulmans-I. Les Ibn Baso. p 1 HESPERIS. Tome XXIV Année 1937.

(2) تنص بعض المصادر على أنه بالإضافة إلى القصر الخاص الذي شيد للخليفة عبد المؤمن شيدت قصور أخرى في جوار قصر الخليفة للسادة بنيه، وإنه كذلك أقطع أعيان وجوه البلاد دياراً ومنازل في الجبل بالإضافة إلى الجامع الذي تقام فيه الصلوات. الحميري: الروض المعطار ص 121.

(3) تلميح لقول الناصر المرواني باني الزهراء:

هـمُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكْـرَهَـا مِنْ بعْدِهِم فبألسُنِ البُنْيَـان =

لو عاينها المتقدمون من آل عاد بن[1] شداد، لأقروا لهم بالعجز وفضولهم على الذين بنوا القصر من سنداد[2].

وجبل طارق هذا شريف البقعة، كريم التربة، عظيم المنعة، باسق مع أعنان السماء، يكاد في المسامتة إلى الجوزاء[3]، وكلما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة من بعضه، نما وزكا وفضل، وجل وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل،- واستقل من جميع الفواكه كشجر التين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والاجاص[4] والأترج والموز وغير ذلك على ضيق ضفته

= إن البناءَ إذا تعاظَم قَدْرُه أضْحَى يدُلُّ على عظَيم الشَّانِ!

المقري؛ نفح الطيب 62:2.

(1) كذا في نص المخطوط: «عاد بن شداد» وهو دون شك سبق قلم من الناسخ والصواب شداد بن عاد، ويذكر المفسرون من أمثال الطبري والثعالبي والزمخشري أنه كان لعاد بن عوص ابنان هما شديد وشداد، وإن الملك خلص لشداد من بعد ودانت له الملوك وسمع وصف الجنّة فقال: «لأبنينّ مثلها) فبنى إرم في صحاري عدن، وإنها كانت مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ومعلوم موقف العلامة ابن خلدون من أساطير إرم ذات العماد. ابن خلدون، 1:20-21-22. ابن جزي: التفسير جزء 4 ص 197. النجار: قصص الأنبياء: ص 70-71.

(2) سنداد نهر فيما بين الحيرة إلى الابلة، به كانت منازل اياد، وكان عليه قصر عظيم تحج العرب إليه وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر في شعره:

ماذا أومل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد

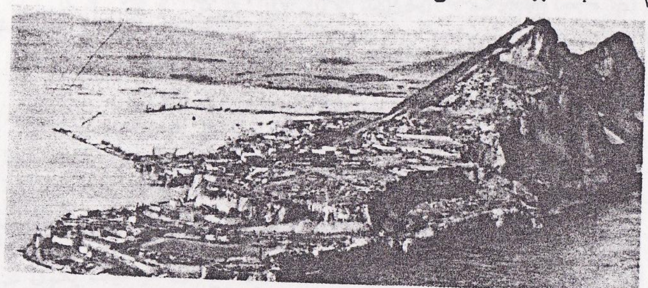
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت 1957 مجلد ثالث ص 266.

(3) الجوزاء: نجم يعترض في جوز السماء، ويظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ والأصل: يكاد في المسامته يصل إلى الجوزاء، وقد علمنا أن ارتفاعه عن سطح البحر يصل إلى 425م.

(4) يذكر ابن صاحب الصلاة الاجاص على أنه شيء غير الكمثري، وأفاد في موضع آخر من الكتاب أن الاجاص فيه ضروب، منها النوع المعروف عند الأطباء بالكمثري، ومنها الاجاص المعروف بالعبقر، والنوع المعروف عند أهل بلنسية بالازرة، وقد ذكر ابن الحشاء أن الاجاص هو المعروف بالمغرب بعين البقر، وبهذا يلوح أن الإجاص هنا يقصد به العبقر الذي هو تحريف لكلمة عين البقر، وقد ذكرت بعض المصادر أن الإجاص عند الأطباء يشمل البرقوق. ابن صاحب الصلاة ص 322، ابن العوام، كتاب الفلاحة: الجزء 1 ص 1802، مدريد ص 260-263 أنظر ص 181 من كتاب الطبخ في المغرب والأندلس لمؤلف مجهول. نشرويثي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 9-15. السنة 1961-1962.

الممتدة كالحبْل، المستمدة من الطل والوبْل. وماؤه عذب[1] زلال، مروق سلسال، وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فه قد صنع في أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح[2] عاينها الثقات مدة البناء المذكور، فلما رجع إلى مراكش[3] [19] عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى لعدم الاهتبال بها. واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور



(1) تتحدث بعض المصادر التاريخية عن تزويد الجبل بالمياه الجارية الكافية، وفيها ما يذكر أن المهندسين «حفروا في سفح الجبل مواضع نبع فيها الماء. وجمع بعضها إلى بعض حتى سال منها جدول عم المدينة كلها، من أعذب الماء وأطيبه، يصب في صحن عظيم اتخذ له وأجري إلى الجنات المغترسة بالجبل...». الادريسي: نزهة المشتاق ص 177. الحميري: الروض المعطار ص 121.

(2) قد يكون هذا هو المصدر الوحيد الذي ينص على وجود رحى ريح تطحن الأقوات بجبل طارق في تلك العصور القديمة وقد تحدث عن هذا الرحى (De Gayangos) دو كاينكوس نقلاً عن ابن صاحب الصلاة كما تحدث عن رحى الريح هذه: (Balbas) بالباس نقلاً كذلك، وبعدهما الأستاذ توريس..
وإذا صح أن أقدم رحى ريح تحدث في هنغاريا ترجع للقرن الثامن فإن أقدم رحى ريح توجد بالجهة الغربية هي - فيما نعلم - هذه.
Grande Encyclipédie Tome 23 P. 823 Al Maqqari Adpt Pascual de Gayangos T II. P. 314-315. Torres Balbas (Al Andalus) Vol VII Gibraltar llave y Guarda de Espana 1: 1942 P. 174.

(3) مراكش مدينة عظيمة تقع جنوب المغرب أسست سنة اثنتين وستين وأربعمائة 462، وقد اتخذها اللمتونيون ثم المصامدة من بعدهم كرسياً للملكة نظراً لقربها من صحراء لمتونة وجبال المصامدة.
الاستبصار ص 208-209-210. المراكشي: المعجب، نشر الفاسي 1938 ص 221-222. ابن خلدون سادس ص 377. العباس بن ابراهيم: تاريخ مراكش (أول) ص 63.
Provençal: la Fondation de Marrakech (Melange, d'Histoire et d'archéologie de l'occident Musulman. Tome II. Page 117.

بناء السور[1] والباب المسمى بباب الفتوح[2] في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقل التي لا يتمكن لطامع فيه طمع، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بر ولا بحر، إذ هو معقل أشِب، ومنزلٌ للسماك منتسب.

واشتغل السيد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيلية مدة شهور في هذه الأوامر العلية، النافذة من الحضرة الإمامية، ولازم فيها الاجتهاد، وقاوم في ذلك الجهاد، يتطلع مع الساعات مبلغ أحوال المباني، وكيف التعاون في جميع المعاني، والفَعَلة يجتهدون في أعمالهم، وينصحون في الأشغال قدر طاقتهم من أحوالهم، فظهر البناء في أقرب مدة، وأبدى العامل عليه جهده، وأظهر نصحه بأعظم قدرة ما عنده.

والسيد الأعلى مع ذلك يرتقب وصول الأخبار بقرب الخليفة من هذه الأقطار، فوَصله الرقاص بالتحقيق، من إيابه والتصديق، أنه في أحواز

(1) كثر الحديث عن مصير هذا السور الموحدي، كما كثر الحديث عن ما آل إليه «سور العرب»، ويقول الماجور جنرال كينيو (1938) أن ثمة أطلالاً مهدمة قائمة إلى الآن على الصخرة العلوية تهبط متعرجة إلى القمة الوسطى وتنتهي عند حافة الهاوية المطلة على الرمال، بيد أن البروفسور نوريس يشك في هذه الأقوال، ويرى أن طارقاً لم يكن هو الذي بنى السور وإنما هو من عمل الموحدين الذين كانوا يهيمون باحاطة المدن بالأسوار كما فعلوا في سور فاس والرباط وأسفي، لكن هذا السور الموحدي تلاشى بدوره وحل مَحَلَّهُ سور أبي الحسن المريني، ويتأكد أن آثار البناء الموجودة الآن حوالى الموريش كاسطل: (Castle Moorish) أو القلعة الحرة (La Calahorra) هي مزيج بين عمل الموحدين وعمل بني مرين كما تدل على ذلك تحليلات مواد البناء التي أجريت من طرف بعض الخبراء. ونأسف لعدم احتفاظ الأيام بالصورة المجسمة (الماكيط) التي صنعها السلطان أبو عنان لشكل الجبل بأبراجه ومخازنه ومساجده، فلو احتفظت بها قصور بني مرين بفاس لتوفرنا على معلومات مفيدة عن الجبل. الحميري: ص 121. ابن بطوطة مجلد رابع ص 355 - 360. محمد الكانوني: اسفي وما إليه ص 79.

(2) باب الفتوح: تجمع المصادر على أنه لم يكن هناك مدخل لمدينة جبل طارق إلا من موضع واحد، وهذا المدخل هو الذي يسميه ابنُ صاحب الصلاة «باب الفتوح» هذا ونعرف أن القائد جوهر جعل للقاهرة أربعة أبواب منها باب تحمل اسم باب الفتوح كما نعرف أن بمدينة فاس باباً تحمل هذا الاسم، وكذا بمدينة صبرة أو المنصورية باب الفتوح.
ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم صفحة 23-37.

فـاس [1]، وقـد استـاق في أتبـاعـه من العـرب بني ريـاح وبني جشم [2] وبني عـدي [3] وقبائلهم مـا يضيق بهم الفضا، على عـدد الـذبـاب وعـدد الحصى، فاستخار الله تعالى على النداء والحركة إلى التبرك بلقياه، وتقبيل يمناه والتيمن بمحيَّـاه وعزم على السفـر في قطعـة [20] من قطع البحـر [4] ليعاين في مسيره أحوال البناء بجبـل طارق، ويعبـر البحر الـزقاق [5] إلى العـدوة [6]، ويكون في قبّاء الأمر العزيز قد سابق السباق، وأدى البيعة والميثاق، واجتنى اليمن الحلو المذاق.

(غدْر ابن همشك بمدينة قرمونة)

فلما كان يوم الجمعة من اليوم الذي عزم فيه بعد الصلاة ان يسيـر، وهو اليوم الخـامس عشر من ربيع الأول وبموافقة اليـوم الثاني والعشـرين من مارس

(1)تقع فاس على مقربـة من وادي سبو شمـال الأطلس المتوسط، وقـد ظلت الطريق الـطبيعي الذي يربط بين العاصمة الموحدية وجزيرة الأندلس من جهة وبين إفريقية وباقي أطراف الامبراطورية من جهة أخرى. . . وقد كان عبد المؤمن يتعمد التعريج عليها جيئةً وذهاباً بالرغم من وجود طرق ثانوية أخرى إذ أنه كان من طلبة العلم بها أيام شبابه. الإدريسي: نزهة المشتاق 64.
الاستبصار ص 181. ابن عذاري: البيان المغرب، المخطوط ص 37-125-126. الاستقصاء: ثـان ص 63.
Celerier: L'Atlas et la Circulation au Maroc Hes 1927 T VII P.442 محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص 10-11.

(2)كان أصل دخول بني جشم إلى المغرب أن الموحدين ـ كـما ترى ـ لما غلبوا عـلى أفريقيـة أَذْعَنَ لهم هؤلاء بالطوع والكراهية كـذلك. وعن أصلهم ونسبهم، أنـظر ابن خلدون، المجلد السادس ص 58 - 68. الاستقصا ثان ص 146.

(3)من بني هلال. ابن خلدون سادس ص 355-356-357-913.

(4)اشتهر المسلمون في العصور الوسطى بقوة أساطيلهم ووفرتها، وكان لهم كما يحكي التـاريخ في كـل جهـة (دار صنعة) للقـطائع البحـرية، ولكـثر ما ذاع ذلـك يرى بعض البـاحثين أن كلمـة ارسنال (Arsenal) تحريف فقط عن (دار الصنعة) المعهودة لدى المسلمين لصنع الأساطيل البحرية.

(5)بحر الزقاق، هو البحر المتوسط وربمـا سمي بحر الشـام، وبحر الـروم وبحر الاسكـندرية وبحـر القسطنطينية، وبحر الافرنج، وتذكر بعض الأخبـار أنه كـانت هناك قنـطرة بين سـاحل الأنـدلس وطنجة من بناء ذي القرنين طولها اثنـا عشر ميلاً. معجم البلدان أول ص 345. الـروض المعطار ص 83.

(6)يعني عدوة المغرب.

العجمي [1] عام خمسة وخمسين وخمسمائة خرج من الصلاة من الجامع فحين انفتل منها، ودخل في القطعة المذكورة، ووصله الخبر بغدر الفسقة أصحـاب ابن همشك مدينة قرمونة [2] بتدليس الشقيّ عبد الله بن شـراحيل [3] فيهـا، وبأن الموحدين الذين بها احتضنـوا وامتنعوا بقبَّتهـا، فخرج السيـد الأعلى المذكـور من القطعة في تلك الساعة وكان باقي ذلك اليوم باشبيلية يوماً عصيباً.

أحدث هذا الخبر فيها حوادث سوء وخطوباً، وفتناً وحروبـاً، وردّ الولـد ان من عظيم الأزمات شيباً، وامتنع السيـد الأعلى من سفره، ورجـع إلى مقره وحضره، ووجه عسكراً إليها على ما ذكرته في (التاريخ [4])، وتكدرت الأحوال بهذا الطارىء من الخبر وكدره، ونظر السيد الأعلى ـ أعلا الله أمره ـ في مقابلة هذا العدوّ بما وعد الله تعالى هذا الأمر العزيز في العاجل والآجل من عـواقب

(1)اعتاد ابن صاحب الصلاة اقتداءً ببعض من سبقـه من المؤرخين القـدامى، أن يوفق بـين التاريـخ القمري والسنوات الجـوليانيـة، لكنه في أغلب الأحيـان لا يوافق الجـداول الجاري بهـا العمل من أمثـال جداول الـدكتور: Cettenoz والمـوافق هنا هـو 25 مارس 1160. هذا ويلوح من النص أن السيد أبا يعقوب كان يريد أن ينزل كما نزل أخوه إلى جبـل طارق لـولا غدر أصحـاب ابن همشك بمدينة قرمونة، كما تستفاد من النص السرعة المتناهية التي استقبل بهـا مشروع بنـاء المدينـة الكبرى على جبل طارق فإن الرسالة الثانية أُرِّخت في التاسع من ربيع الأول 555 وحملت «في أقرب تاريـخ عن طريق البحر». انظر المن بالامامة ص 10-20.

(2)قرمونة (Carmona)، تقع عـلى مقربـة من اشبيلية في الشمـال الشرقي منهـا، وهي مدينـة كبيرة قديمة في سفح جبل، وجنباتها حصينة ممتنعة، ومن أبوابها باب يرني، وبـاب قرطبـة وباب قلشـانة وباب اشبيلية، وبها جامع من سبع بلاطات على أعمدة رخام وأرجل صخر وبداخلهـا آثار كثيـرة للأول إلا أن جله اندثر. . .
الـروض المعطار: ص 158 - 159. أحمـد بن المهـدي الغـزال، نتيجـة الاجتهـاد في المهـادنـة والجهاد، نشر الفريد البستاني طبعة تطوان 1941 ص 34.

(3)نفس ما عند ابن عذاري، وابن الخطيب. انظر البيان المغرب ص 29 وكتاب أعمال الاعلام ص 261.

(4)يعني تاريخ المريدين كما سيؤكد بعد سطور، ومن حسن الحظ أن يعتمـد ابن صاحب الصـلاة على هذه الإحـالة وأن يفيد هنا ذكر أخبار قرمونة ص 45 فان المصـدرين الوحيـدين اللذين ردًّدا صدى كتـاب (تاريـخ المريـدين) ـ فيما نعلم ـ هـو الحلة السيراء لابن الآبـار والذيـل والتكملة لابن عبـد الملك، ولكن ابن الآبار بالرغم من تعرضه لبعض الثوار نقـلاً عن ابن صاحب الصـلاة أهمل ذكـر أخبار قرمونة في أحداث المائة السادسة: الحلة السيراء 199-202-206-213-223.

النصر حسب ما قد ذكرته في (تاريخ المريدين) وحسب [21] ما أعيد ذكره في «هذا التاريخ»[1] بعد الفراغ من ذكر الورود السعيد الميمون الطالع بالتأمين والفتح المبين: ورود سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه وعبوره البحر الزقاق إلى جبل طارق.

ذكر عبور الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه البحر من سبته[2] إلى الأندلس ونزوله منها في مرفأ[3] جبل طارق

وذلك في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة الموافق لشهر ينير[4] العجمي من العام المؤرخ به عند إيابه من غزوته المهدية وفتح جميع إفريقية ليجتمع بطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم والمحاربين في نواحيها.

قال الراوية: وبرز إليه يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم، وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان، ولا تخيل مرآه في الأذهان.

(1) عبارة صريحة في أن لابن صاحب الصلاة كتابين: الأول سابق وهو تاريخ المريدين، والثاني لاحق وهو هذا التاريخ، هذا وسيذكر أخبار قرمونة ص 45 كما سلف قريباً.

(2) سبتة من العدوة المغربية تقع على شاطىء المتوسط يُحيط بها البحر من ثلاث جهات وهي قديمة فيها آثار كثيرة، وعن مدرستها تخرج علماء جلة، وعلى مقربة منها تقع قرية بليونش حيث يوجد (جبل موسى بن نصير) الذي كان منه عبوره لأول مرة إلى ساحل طريف. . الادريسي ص 167. الاستبصار ص 138 - 137.

(3) كذا كتب في الأصل ولعل الصواب مرفأ بالفا أو المرقى بالياء، هذا وقد تعود الجيش الموحدي أن ينزل غالباً بجبل طارق كلما كان إبحاره من سبتة كما اعتاد أن يقصد طريف كلما تحرك من قصر مصمودة أو القصر الصغير، دوكاستري، فرنسا السلسلة الأولى. المجلد الأول ص 124. تعليق 3.

(4) ذو القعدة يوافق في الواقع نونبر - دجنبر 1160.

قال المؤلف[1]: ولما أنارت الآفاق بالعدوة والأندلس بالبشائر الواصلة بقرب الخليفة في الإياب من المسير، على أوفى الظفر والتيسير، أنفذ السيد الأجل الأعلى أبو يعقوب [22] عزمه الأول بالإسراع، والوخد والذميل لبركة اللقاء والاجتماع، واَستناب باشبيلية من طلبة الموحدين - أعانهم الله - من ينوب منابه في محاربة أهل قرمونة الأشقياء أصحاب ابن همشك، على ما أذكره بعد فراغي[2] من ذكر هذا العبور السعيد. وتقدم وواصل سيره للقاء وأبرم بجملة أصحابه من أبناء الجماعة الجلة أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي[3]، وأخيه أبي يحيى[4]، وأبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم[5] وأبي يحيى بن أبي حفص ابن يحيى[6] وأصحابهم الموحدين وشيخ الرؤساء بالأندلس أبي العلاء بن عزون وأشياخ الأجناد والقواد الأندلسيين.

ووفد السيد الأجل أبو سعيد بجميع أشياخه من الموحدين وأبناء الجماعة أصحابه وحفاظه وأشياخ غرناطة وأنظارها ووصل الجبل المذكور يوم وصول السيد الأعلى أبي يعقوب. ونفر الناس عند مشي هذا السيد الضخم

(1) أخذ المؤلف يعتمد على ما شاهده هو من أحداث وهو في الأندلس.

(2) ابتداء من صفحة 36.

(3) هذا هو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الذي عُيِّنَ والياً على اشبيلية من لدن عبد المؤمن في الوقت الذي عين فيه عبد الرحمن بن تيجيت، وذلك سنة خمسين وخمس مائة، وقد استمر في مهمته مجاهداً مخلصاً إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة عندما ولد أشياخ الأندلس - وهو من ضمنهم - على الحضرة يقترحون على الخليفة تشريفهم بوالٍ من السادة وآنذاك تم تعيين ولده السيد أبي يعقوب يوسف، وقد استشهد أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي في موقعة مرج الرقاد عام 557.
ابن صاحب الصلاة ص 53-54 ابن عذاري ص 11-12-13.
Dozy: Recherches.. Page 375.

(4) أبو يحيى بن أبي حفص بن علي، وقد اختفى ذكره باختفاء أخيه الوالي الشهيد.

(5) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من رفاق ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته، وقد ترجم له ترجمة كاملة صفحة 152.

(6) من الوفد الذي بعث به أبو يعقوب يوسف إلى قرطبة للاتصال بأخيه أبي سعيد عثمان في شأن الحصول على طاعته لأخيه وذلك إثر وفاة عبد المؤمن، ثم رافق الوفد لجبل طارق عندما تم إصلاح ذات البين.

من أهل اشبيلية من شيوخها وطلبتها وأعيانها وقاضيها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر بن الجد [1]، وابنيه [2]، وسائر أهل النباهة باشبيلية من الكبراء والشعراء وكذلك أهل قرطبة وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين أيدهم الله ووفد إلى ذلك أهل غرب[3] اشبيلية من كبرائهم وشيوخهم وطلبتهم وشعرائهم [23]. . . [4] ادهم وأجنادهم ووصل هذا الجمع على أوفى العموم إلى الجبل بذلك المشهد العظيم، والمسلك الكريم.

وعلم الخليفة رضي الله عنه بوصولهم وحلولهم وببدارهم وإسراعهم واجتماعهم فأمر وزيره ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يجمع الوفود من كلّ البلاد وأن يدخلهم إليه بمجلسه العالي للسلام ولتجديد البيعة الكريمة وتقبيل اليد المباركة منه والاستسلام. فدخلوا على ترتيب وتأديب وسلموا سلام جماعة وتكلّموا اقراراً بالطاعة، وتقدم أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي [5]مع القاضي أبي بكر الغافقي لتعيين أهل اشبيلية وتسميتهم وأهل الغرب، وكذلك قاضي قرطبة في تعيين أهل قرطبة ونظرها. وقام الخطيب أبو

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد الفهري، سمع ببلده لبلة كتاب سيبويه، وأخذ كتب اللغات، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد فناوله هذا كتاب البيان والمقدمات، نال حظوة عند الملوك، وكان حافظ المغرب لمذهب مالك وقد كان في جملة الوفد الذي قدم على عبد المؤمن صحبة أبي بكر بن العربي. توفي باشبيلية في شوال من سنة 586. ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة (كوديرا) رقم 825. الحلل الموشية ص 34 - 122. البستاني: دائرة المعارف مجلد ثان ص 403.

(2) لعله يعني بهما ولديه عبد الرحمن وأحمد اللذين كانا أول القادمين لفاس من عائلة بني الجد المجيدة، نعرف له ولداً آخر اسمه عبد الملك. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 953. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب. تعليق الهاشمي الفيلالي 182:2 الرباط 1936.

(3) الغرب (Algarve) يعني غرب الأندلس. . . وتعرف به ناحية لشبونة ويابرة. انظر خريطة بروفنصال.

(4) الخطوط السبعة التي توجد تحت الكلمات التالية تُشير لكشط يوجد أوائل السطور السبعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا في ملئها بكلمات مناسبة.

(5) تقدم في التعليق رقم 3 ص 93 أنه كان والياً على اشبيلية قبل تعيين السيد أبي يعقوب، لكنه ظل محل تشريف وظل كأنه الوالي الشرفي، ولذلك نراه اليوم يقوم - مع قاضي اشبيلية - بمهمة تقديم الوفود للخليفة عبد المؤمن.

الحسين بن الاشبيلي [1] وصاحبه أبو محمد بن جبل [2]وأبو محمد المالقي[3] وخطبوا على انفراد، كل واحد منهم خطبة في حق البيعة ولزومها، وربط الشرع لعهودها ورسومها، وأفصحوا بما خطبوا، وجاؤا من كلامهم بالسحر الحلال وأطنبوا، ثم أذن لهم بالقرب بتقبيل اليد المباركة على ما بين من البيعة على الإيمان والأمانة، ولزوم الوفاء بالطاعة والديانة، وأذن للشُّعراء في[4] الانشاد، بذلك المجلس العالي الشريف العماد، فأوردوا ما نظموه من فكرهم بمحضر الوارد والرواد، واحتفال الوفود [24] والاشهاد، فقال أبو بكر بن المنخل الشلبي [5] مهنئاً مادحاً، وفي ذلك الجمع منشداً مادحاً وقال: (طويل)

فتحتمْ بلاد الشرق فاعتمدُوا الغرْبَا ... فإن نسيمَ النصر بالفتْح قد هبَّا[6]
أصَرتم إليه الخيلَ وهي أجادلُ ... فسالتْ بكم بحراً وطارتْ بكم ركبا[7]

---

(1) هو علي بن محمد بن خليل أبو الحسين عرف بابن الاشبيلي، سكن المرية وأخذ عن أبي القاسم بن ورد وقد كان خطيباً مفوهاً، وقد أخذ عنه أبو القاسم بن الملجوم وأبو عمرو بن عثمان بن عبد الله وكذا عبد الملك ابن صاحب الصلاة، توفي بمراكش سنة 567. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1862، المن بالامامة ص 85.

(2) هو عبد الله بن جبل صاحب ابن الاشبيلي والخطيب بعده، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان. المراكشي: المعجب طبعة 1949 ص 200. المن بالامامة ص 85-86.

(3) انظر التعليق رقم (1) صفحة 71.

(4) يذكر المراكشي أن العادة المتبعة لدى الخليفة عبد المؤمن في مناسبات التهنئة أن يستأذن الشعراء في الانشاد «فيؤذن لهم» لكنه هذه المرة - مناسبة بناء مدينة جبل الفتح - استدعاهم ابتداءً. المراكشي: المعجب، طبعة 1949 ص 213.

(5) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخل الفهري، يكنى أبا بكر، كان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجيدين مشاركاً في علم الكلام، من شعره:

مضَتْ لِي ستٌ بعد سبعين حجةً ... ولي حركاتٌ بعدها وسُكُون
فيا ليتَ شِعْري أيْن أو كَيْفَ أو مَتَى ... يَكُونُ الَّذي لا بُدَّ أنْ سَيكُون؟!

وقد توفي في حدود الستين وخمسمائة.

ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 730، ورقم 1427. الحلة السيراء 205.

المقري، النفح، 5:213-254.

(6) الخطوط الأربعة التي توجد تحت الكلمات تشير لكشط يوجد أواخر السطور الأربعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا لملئها متى غلب الظن.

(7) في ابن عذاري (شهبا) ص 24.

ودسْتُم بهـا هامـاتِ كـلِّ مضلّلِ — ولم تتركُوا عجماً هناك ولا عُرْبا
رميتُم بها مثلَ السِّهـام فأصبحتْ — كُمـاتُهم صرعى وأمـوالُهم نهْبَـا
اتوكم يجرون الحَديدَ سوابغاً — كـأنهم البحرُ الغَمـالط قد عبًّا
وظنوا - وفي الظن الجهالةُ - أنَّهُمْ — يفلُّون من أجنادك الصارم العضبا
فلمـا تلاقيتم وبيَّنَت الوغى — تولوا وقد طارتْ قلوبُهم رُعْبا
اضلَّتْهم البيضُ الصوارم والقَنا — فكانت لهم رفعاً وكانوا لَها نَصْبا!
وقادتُهُم تلك السيوفُ إلى الرَّدَى — وما غادرتْ سهْلَ القِيادِ ولا صَعْبا!
وراموا فِراراً والرماحُ تنوشُهُم — فما قَطَعُوا فجّاً ولا سَلَكُوا شعبا
وخرُّوا جميعاً هامدين كأنَّهُمْ — ندامى تساقوا بينهم أكؤسَ الصَّهبا
تَغَشَّتْهُمْ سُودُ المنايا فأصبحت — مفارقُهم تغشى الجنادِلَ والتُّرْبَا!
وهبَّت عليهمْ ريحُ بأسِكَ حَرْجَفاً — فما تركتْ نَبْعاً عليهم ولا قضْبَا
لقد حكّمت فيهِمْ ظُبَى الهِنْدِ رأيها — تقتِّلُهم ضرْباً وتُوسرهم سِرْبَا
وكانوا لكم جُنْداً فصارُوا غنيمَة — كذلك من يُزهي بآرائه عُجْبَا
قروكم عتاقاً شُزَّباً وعواتقاً — بما قد قَراهم جيشُك الطَّعنَ والضَّربا
أقيموا إلى ابن الرِّيق[1] بعد صدورها — وليس عَلَيْكم أن ترى ضُمَّراً قُبّا[2] .
[25] رعتْها الفيافي فاستدقت جسومها — بما قَد رعتْ فيها الكلا يَابساً رطْبا
عليها رجالٌ كالقِداح، وإنَّما — يكونُونَ في الهيجاءِ هِنْديةً قضْبا
فإن تَبْدؤا بالغَرْبِ فالفتحُ واضحٌ — وإنَّ نجومَ الدِّين طالعةٌ غربا
ضمان عليكم أن تبيحوا حَريمَه — وأن تكسروا فيها التماثيلَ والصلبا
وأن تُوردوها نهر (دُويْرُ[3]) صواديا — فتأنف أن تسقى بها الباردَ العذبا.

(1) ابن الريق هذا هو الفونسو هنريكيز (Alflnso Enriquez) وقد تسميه المصادر كذلك ابن الرنك، او صاحب قلمرية، أي صاحب البرتغال لأن قلمرية آنئذ عاصمة البرتغال. المراكشي: المعجب 320. ابن الخطيب: الاعلام ص 251. أشباخ: تاريخ الأندلس، ترجمة عبد الله عنان طبعة 1958 ص 242-245-279. - Terrasse: Histoire du Maroc II P. 321
(2) القب: العظم الناتيء من الظهرين، ويكني الشاعر بهذا عن هيف المطايا.
(3) نهر دُوِيرُه (Duero) من الأودية الأربعة التي تصب في المحيط، وادي مينو، وتاجه، وآنه، وهو ينحدر من جبال قشتالة القديمة ويصب عند البرتغال في بورتو (Porto) غربي الجزيرة، وتسميه =

تعافُ غيرَ الماء صفواً، فإنْ جَرَى — بِهِ من دَم الأَعداء أفنَيْتَه شُرْبا!
ومَن تَخِذَ الآسادَ حرْبِه — أعد مُجَاجات الكُلوم له شِرْبا
يلوذُونَ في الهَيْجَا بأروعَ ماجِدٍ — إذا دَارتِ الهيْجاءُ كانَ لَها قُطْبا
وان عصفت ريح الوغى أحْدَقُوا بِهِ — فكانوا لَهُ جِسْماً وكان لَهُم قَلْبَا
مليكٌ كأنَّ الأرض قبضةُ كفِّهِ — فلا بُعْدَ فيما ينتحيه ولا قُرْبَا
لِكفَّيْه فضْلٌ بانَ عن كلِّ فاضِلٍ — إذا شَدَّ عقْدَ السّلْم أو بَعَثَ الحرْبا!
إذا أجْدَبت أرضٌ نحاها بجُودِهِ — فما أغْزَرَ السُّقْيا وما أكْثَر الخصْبا!
وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ الخفياتِ أمْرَه — لما دَرَسُوا صُحْفاً ولا صَنَّفوا كتبا!
وَقدْ كان هَذَا الدّينُ ولَّى شبَابُه — فلمَّا تولَّى الدِّينُ لم يعْدُ أن شَبَّا
إذَا ما ذكرناه وقد ضاق أمرُنَا — تفرَّج حتَّى صَارَ متّسعاً رحْبا!
كذلك مَن يَلقى الخَلِيفَة تلْقَه — بَشائِرُ يستجْلِي بِها السَّهْلَ والرَّحْبا!
نسيْنَا بِهِ ابناءنا وديارنا — فها نَحْنُ لا نرتاح إن ذَكرُوا شِلبا[1]
بلادٌ قضى فيها الشَّبَاب مآرِبي — وأبقى لنفسي ما بقيت بها إربَا[2]
تبشِّرُنا عنه الصَّباحُ بغُرَّة — إذا طَلَعَتْ حيّت ببهجتِها الركبا
[26] فقل لابنِ رَيمُنْد[3] تأهَّب لغزوة — يُسدُّ عليكُمْ جَيْشُها الأفتحُ السّهبا!

= العرب بالوادي الجوفي. هذا وبضبط الاسم بضم الدال وتسكين الياء وضم الراء ليستقيم وزن البيت. ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص 67. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 236. شكيب ارسلان: الحلل السندسية، الأول 28.
(1) شلب (Silves) تقع على مقربة من شاطىء المحيط الأطلسي غربي جنوب مدينة باجة، وشمال غربي شنتمرية، عليها سور حصين ولها غلات وجنات.
الحميري: الروض المعطار ص 106-107-108.
(2) البيت يميل لقول الشاعر:

بلد صحبت به الصبابة والصبا — ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثَّل في الضمير رأيته — وعليه أغصان الشباب تميد

ويشير لقول ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهم — مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم — عهود الصبا فيها فحنُّوا لذلكا

(3) ابن ريمند يعني به - والشاعر يتكلم سنة 555 (1160) - ريمند بيرانكير الرابع (Raimundo Berenguer IV) المتولي بعد وفاة أبيه ريمند الثالث سنة 525 (1131)، وقد تلقب بالقديس واتفق مع =

إذا جرِّدتْ فيها السيوفُ حسِبْتَها ... جَداوِلَ رَوْضٍ، والرماحَ بهِ قضْبا
كأن نَعام الدوِّ باضتْ بأفقِه ... وقد لقحتْ هُوجُ الرياح بِه سُحْبا!
وإن عثرت أعلامُه لمُحارِبٍ ... جرى دَمُه من تحْتِهَا وابلاً سَكْبَا
وإن لقيت هضْباً حوافرُ خَيْلِهِ ... أصارتْه سَهْلاً لا ترى فَوْقَه هَضْبا
إذا جاوزت دَرْباً إليكم فإنَّما ... يجُوزُ وشيكُ الموتِ نحوَكمُ دَرْبَا!
وان يقض نحْباً منهم ذُو بَسالةٍ ... فمن نفْس جبَّارٍ لكم يقْتضى النَّحْبَا!
ويسْتنْشِدُ البطريق[1] في عرصاتِكم: ... «فدَيْناكَ من رَبْعٍ وإن زدتنا كرْبا[2]»
امرسلَها شُعْثَ النواصِي سَوَاهِما ... ومُصْدرها شُقْراً وقد وَرَدَتْ شُهْبا
ترفَّقْ علينا إنها خَيْر مَكْسَبٍ ... وأفضَلُ مَال المَرْءِ أَفْضَله كَسْبا
فَلوْ لم تُجزْهَا السُّنُ نَحْو عدوِّها ... لجَازَتْ إليه البَحْرَ تقطعُه وثْبا!
فما اعطت العُرْبُ القِيادَ طَواعَةً ... ولا أسْمَحت ودّاً، ولا أذْعَنت حُبّا!
ولكن رأتْ شُهْبَ الهُدَى مُسْتَنيرَةً ... فخَافَتْ رُجُوماً مِنْ أسنَّته شُهْبا!
رأوا بكَ دينَ الله كيْف اعتزَازُه ... وانتُم له حربٌ فكانوا لَهُ حَرْبَا.

= رامير الثاني ملك أرغون، على أن يتزوج بالأميرة بِتْرُنِيلّةْ (Petronilla) وارثه مملكة أرغون، ثم لما خلع رامير نفسه من ملك أرغون واختار الرهبانية بايع أهل أرغون ريمند الرابع ملكاً عليهم، فصارت في يده قوة عظيمة وتحالف مع اذفونش ملك قشتمالة واستمر ملكاً إلى سنة (1162) 557. هذا وليس ببعيد ـ كذلك ـ أن يكون القصد بابن ريمند أذفونش الصغير حفيد ريمند المعروف تحت اسم الفونسو الثامن (El Rey Chico)، هذا بالإضافة إلى إمكانيةاحتمال الابن الحقيقي لريموند وهو فرنانده البيوج فهي اعتبارات ثلاثة. ترقَّب تعليقاً ص 230 من المن ابن الخطيب: أعلام الاعلام ص 337. الحميري: الروض المعطار ص 43 - 42 الترجمة الفرنسية ص 54. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 258 - 254. شكيب ارسلان: الحلل الهندسية جزء ثان ص 220.
Melchor Antuna: Al Andalus Vol 1 1933 P. 105 - 153.

ابن خلدون: رابع ص 397.
Dozy: Recherches P. 115.

(1) البطريق (Patriarche): رئيس الأساقفة وقبل انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية كان يوجد خمسة بطارقة، وبعد انفصالها بقيت الكنيسة الشرقية تنقسم إدارياً إلى أربعة بطارقة بينما صار لقب البطريق في الكنيسة الغربية لقباً تشريفياً فقط.

(2) فيه من البديع الايداع وهو من أنواع التضمين، فلقد أودع فيه ابن المنخل من شعر المتنبي في مَدح سيف الدولة:
فديْناك من ربعٍ وإن زدتَنا كرباً ... فإنك كنت الشَّرق للشمس والغربا..

وقام محمد بن المدهور وأنشدَ لأبي العباس الأستاذ بن سيد[1] الإشبيلي ـ عرف باللص ـ هذا أبو العباس يعرف باللص وإنما سمي باللص لقوله:

(مضارع)

[27] جَلَبْتَ قلبي بطَرْف ... أبا الحُسَيْن خَلُوب
فلِمْ أُسَمى بِلصٍّ؟ ... وأنْتَ لِصُّ القُلوب[2]!

يعني أبا الحسين فَنْدَلة[2] في أيام الفتوة، قصيدة بعثها معه إذ كان ضعيفاً عن الوصول بها: (بسيط)

غمِّضْ عن الشَّمْسِ واستَقْصِر مَدَى زُحَل[3] ... وانظُرْ إلى الجَبَل الرَّاسِي على الجَبَل؟
أنَّى استقرَّ لهُ أنَّى اسْتَقَلَّ بِهِ ... أنَّى رأى شخصَه العَالِي وَلَمْ يَزل[5]
إنَّى أطاقَ له حَمْلاً وقد عَجَزَتْ ... عنه الصُّدُورُ، وفيها كلُّ مُحْتَمل
وَمنْ تَكُنْ رُحُبُ الأذْهَانِ ضيِّقةً ... عن حَمْلِه لم يَسعْهُ أرْحب السُّهُل!
لكِنْ رَأى جارَه ذا اللُّج يحمِلُه ... فكانَ ما كان بَين العَجْزِ والفشَل[6]
لِتَهْن أنْدَلُساً أن زَارَها مَلِكٌ ... أحْيى وأنشَر فيها ميِّتَ الأمَل
وَمنْ تَكُن عادةُ الإحياءِ عادته ... هانَتْ على راحَتَيْه جمْلةُ العِلَل!
خلِيفةُ اللهِ مَا جَاء الزَّمانُ بِه ... إلَّا ليرفُوَّ ما فِيه مِنَ الخَلَل
تغَنى بعَزْمتِه الأقْدَارُ مُجْلِيَةً ... عَنْ حَادِث جَللٍ في الحادِث الجَلل

(1) هو أحمد بن سيد الاشبيلي، وهو غير ابن سيد المالقي، أقرأ العربية والآداب واللغات، وكان قائماً عليها متحققاً بصناعتها شاعراً مع ذلك مفلقاً، وقد توفي سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمس مائة، التكملة طبعة بيل - ابن أبي شنب ص 98 رقم 212. المراكشي: المعجب ص 217. المقري: النفخ 17:5 - 18 - 325. ابن سعيد: المُغْرب نشر شوقى ضيف أول ص 202.

(2) صفوان بن ادريس، زاد المسافر نشر عبد القادر محداد بيروت 1939 ص 52. انظر نفح الطيب جزء خامس ص 332-335.

(3) المقري: نفح الطيب تعليق عبد الحميد جزء خامس ص 22:

(4) زحل: كوكب تحيط به منطقة نيرة يضرب به المثل في العلو والبعد كما قال الطغرائي:
وإن علاني من دوني فلا عجب ... لي أسوة بانحطاط الشمس عن زُحل!

(5) لم يزد المراكشي في المعجب على هذين البيتين ص 217.

(6) أضاف صاحب زاد المسافر هذا البيت على البيتين الأولين ولكن فيه عوض العجز (اللعي).

دُون الخِلافَة في أجْفانِه زَمَعٌ،   مذهَّبٌ سيفُه لمْ يَهْد في الخِلل
فاستله قَبَساً تزكو لَهُ شُعَل   تكادُ تَحْرِق دِرْعَ الفَارِس البَطَل
كالظلَّةِ التَهبَتْ من كلِّ ناحِيةٍ   حتَّى رمَتْ بالَّتي تَرْمِي عن الطَّلَل
عجِبْتُ أن يتَصدَّى المُمْحِلونَ لَهُ   وما بأعطافه نَضْحٌ من البَلَلِ.

[28] وأن يُقِيمَ مِنَ المَيْل المُبينِ ولا   يُقيم ما بِعَراريْهِ من الهَبَل
ملك إذا تَشْغَل الدُّنْيا أخَا تَرَفٍ   ألفيْتَه بالمَعَالي جَدَّ مُشْتَغِل!
وإن نظَرتَ إليه وهْو مُنْفَردٌ   رأيتَ فيه جميعَ النَّاسِ في رَجُل!
مَا زَال يُغْضي فيُعْطي صافحا كرما   والصَّفْحُ قدْ يَحمِلُ العاصي على الزَّلل
حَتَّى إذا خطرَ العَاصي بِخاطِرهِ   لم تَرْجُ فِتْراً لهُ الأيام في الطّوَل!
وكَمْ له وقْعَةٍ في كلّ طَاغيةٍ   عَلَتْ على وَقعاتِ الأعْصُرِ الأوَل
يعرُوا المُحَدِّقَ في تَردَادِها نظَراً   ما لَيْس يعْرُوه من صفّين [1] والجمل [3]
سَمَا إلى الشَّرق يجتابُ اليبابَ به   عُتْقُ المَهارة والمهْريةِ الذُلُل
والمُلكُ ليسَ بمُرسَاةٍ قواعِدُهُ   ما لَمْ يقُمْ بين أيْدي الخَيْل والإِبْل!
وجَحْفَلٍ لجِب سُدَّ الفجَاجُ بِهِ   وأعثَرَ الطَّيْرُ منهُ في ذرى الأسَل
تعدُو ذكاءُ وهْي قد نهَبتْ   فتستجِدُّ أناةً من سَنَى المُقَل
مصاحباً مِثْله في اليَمّ متَّصلاً   مِنْه بحَزْم وعَزْم غَيْر مُنْفَصِل
مِنْ كلِّ عائمَةٍ في شَكْلِ طائِرَةٍ   تَشاكَل الأمْرُ فيها كلَّ مشتكل
هِيَ الأسَاودُ إلَّا أنَّها خُشِيَتْ   أسْداً فطالَتْ ولَوْلا الأسْد لَم تطُلْ
فدَوَّخَ الأرضَ لم يعْتَص لهُ مَلِكٌ   إلَّا وصيَّرهُ أعْفى من الطَّلَل!
ولا تَمَنَّع جيْشٌ أن يَدِينَ لَهُ   إلَّا توزَّعَ بَيْنَ القَتْل والنَّفَل
تُزْهى بملكٍ قدِيرٍ كلُّ مَمْلكةٍ   ويَزْدهِي ربُّها إنْ عُدَّ في الخَول!

---

(1) صفّين: موضع بقرب مدينة الرقة تقع غربيها حيث كانت الواقعة الشهيرة بين علي رضي الله عنه ومعاوية سنة 37.

ابن خلدون: المجلد الثاني صفحة 1096-1114.

(2) يعني الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل التي كانت سنة 36 في البصرة. ابن خلدون، 2: ص 1961-1090.

حَتَّى إذا اسْتَوْسَق الأمْرُ العلي لَهُ   بالشَّرْقِ كَرَّ لنصْر الغَرْب في عجَل!
فكان كالنَّوْم في أجْفَانِ ذي سُهُدٍ   أو كالأمَان على أحْشاء ذِي وَجَلِ!
[29] أضْحى بكرته الإسلامُ في جَذَلٍ   والمُشركون وأهْلُ الكُفر في جَدَل:
كُلٌّ يُولّي صريحَ العَدْل صَاحِبَه   والسَّيفُ يَسْبِق مَا يَأتي من العَذَل
اسْتأسَدُوا عِنْدَ مناآه! وغرَّهُمُ   أنْ عَادَلُوا بين مُسْتَعلٍ ومستفِل!
أيعدل الغيمُ غُرِّ المزن لَوْ عَقَلُوا   أو يُجْعَل السَّمَل المشفوه، كالسَّبَل [1]
أبلغْ ذَوي الشِّرْكِ والإلْحادِ قاطبةً   أنْ مَا لَهُم من جُنودِ اللهِ من قِبَل!
أتاكم الجَيْشُ محفوفاً جوانبُه   بالمَشْرَفيّةِ [2] والخطيّة [3] الذُّبُل
رِيعُوا إلى السّلْم والاسْلام ويحكُم   لا تَحْسبُوا دَولَة التَّوحيدِ كالدُّول!
فإن اتيتُم حقَنتُم مِن دِمَائِكُمُ   وإن أبيتُم فخَلفُوا فَجْأة الأجَلِ
والله يُخلد مولانا وسيّدنَا   حتَّى يبلّغ فيكم غايَة الأمَل!

قال الراوية لما أنشد المنشد هذه القصيدة بين يدي أمير المؤمنين أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر: «غمّضْ عن الشمس» وقال على مسمع من الناس: «غمِّضْ! غمِّض!» منكراً لها [4] لأنه كان يحب الفأل

---

(1) السمل: بقية الماء في الحوض، والسَّبل: المطر بين السَّحاب والأرض، وماء مشفوه: كثيرُ الشاربة، كذا في لسان العرب. وقد كتب الناسخ طرة تعليقاً على هذه المفردات يقول فيها - فيما قرأنا - «كذا في أصل المؤلف» ذكر صاحب العين: (السمل بالميم: الماء القليل، والسبل بالباء: الكثير من الماء، المشفوه: يعني بالشفة) وهو يعني بصاحب العين الخليل الفراهيدي في كتابه المسمى «العين» (مخطوط). انظر مقدمة كتاب مختصر العين، تحقيق علال الفاسي ومحمد بن تاويت. طبع 1963.

(2) أي السيوف المشرفية نسبة إلى قرى من أرض العرب تدنو من الريف اسمها مشارف الشام ويقال أيضاً أن النسبة إلى موضع باليمن.

(3) أي الرماح نسبة إلى الخط: موضع باليمامة، خط هجر، تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوَّم به، ومنه:

وهل يُنْبِت الخطّي إلا وشيجه

(4) في المعجب أن عبد المؤمن توجه إلى الشاعر - الذي يعتقد المراكشي أنه كان حاضراً بنفسه - قائلاً: لقد ثقلتنا يا رجل! فأمر به، فأجلس، قال المراكشي: وهذه القصيدة من خيار ما مدح به لولا أنه كدَّر صفوها بهذه الفاتحة. المعجب، القاهرة ص 217.

الحسن، لكنه أمر له بعشرة دنانير عليه، كما أمر لكل شاعر، وأمر بعشرين مثقالاً لكل من وفد إليه من قاصد لرؤيته وزائر.

وقام القرشي الأمي القرطبي المعروف بالطليق(1) - عرف بالطليق بسبب جده الذي أطلقه رسول الله ﷺ(2) - فأنشد وأجاد، واستحسن [30] شعره، وكان الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي(3) كاتب الخليفة واقفاً يحسن أبياته ويكررها، وأولها: (بسيط)

مـا للعِـدا جُنَّـةٌ أوقى من الهَـرَب ... كيف المفرُّ وخَيْلُ اللهِ في الطَّلب(4)
لو بُـدِّلُـوا قـدمـاً زلّتْ بقـادمـه ... لأَصْبَـحَ الكلُّ طيّـاراً من الـرعب
وأيْنَ يَـذْهَبُ مَنْ في رأسِ شاهقـةٍ ... إذا رَمَتْـه سَمـاءُ اللهِ بـالشُّهُـب(4)
قدْ لاذَ بدْرُ الـدُّجى منكم بهـالتـه ... واكتنَّ ليثُ الشَّرى في غِيلِهِ الأشِب
حـدِّثْ عن الرُوم في أقْطار أندلُس ... والبحْرَ قدْ مَلأَ العَبْرَيْن بـالعَـرَب(4)
مِن كـلِّ مَن يترك الهيجاءَ في حلكٍ ... جمْـرٍ إذا اخضرَّت الغَبْـراء بـالعُشْب
مـقـلّب بـين مـشْـتـاةٍ وهـاجـرَةٍ ... تقلُّبَ السَّيْفِ بَيْـنَ المـاء والـلَّهب
يـرْمي بهم ظَهْر طرفٍ بطْنَ سابحَةٍ ... فـالبر في شُغُـلٍ والبَحْرُ في صَخَب

(1) يسميه المقري بالأصم المرواني، وقد أورد المراكشي بعضاً من القصيدة المذكورة هنا كما فعل المقّري. المعجب ص 215. زاد المسافر: الترجمة رقم 39. نفح الطيب جزء خامس ص 130.

(2) ترى أن سبب تسمية هذا الشاعر بالطليق لأن الرسول عليه السلام أطلق جده والمراكشي يعلل التسمية بأن جده كان طليق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور وأن سبب الافراج كان أسطورة نعامة فلذلك يعرف بطليق النعامة. المعجب: ص216 - 217.

(3) عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هرون الأزدي القرطبي وأصله من مدينة يابرة بالأندلس، صحب بني حمدين بقرطبة ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك في الكتابة، وكان مع تقدمه في الآداب وتصرفه مشاركاً في النظم من أبرع الناس خطاً وكانت له من الولاة منزلة جليلة ومن شعره:

عصيت هـوى نفسي صغيراً فبعـد مـا ... رمتني الليـالي بـالمشيب وبـالكبر
اطعتُ الهـوى عكس القضيـة ليتني ... خُلقت كبيـراً وانتقلت إلى الصغـر!

وكانت وفاته سنة 568. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1721.

(4) الأبيات الثلاثة التي اكتفى بها المراكشي (ص 216) واقتصر ابن عذاري على البيتين الأولين، انظر ص 24 منه.

وتعْبـرُ المـاء منهم نـارُ عـاديـةٍ ... يَصْلى بهـا عـابـدُ الأوثـان والصُلُب
وطـودُ طـارق قـدْ حَـلَّ الإمَـامُ بـهِ ... كالطُّور(1) كان لموسى أيمنَ الرُّتب(2)!
لَوْ يعرف الطود مـا غشاه من كـرم ... لم يبسط الغور فيه الكفَّ للسحب(2)
ولـو تيـقَّـنَ بـأسـا حـل ذِروتـه ... لعادَ كالعِهْن من خَوْف ومن رهب(2)!
مِنْـه يعـاود هـذا الفتـح ثـانيـةً ... أضْعاف ما حدَّثوا في سَالِف الحِقَب(2)
ويُلبِسُ الـدِّينَ غضّاً ثـوبَ عـزتـه ... كـأن أيـامَ بـدر(3) عَنْـه لَمْ تَغِب!
تـدبير من قـارعَ الأيامَ واختلطتْ ... آراؤه في الـوَغى بـالسُّمْـر والقُضُب
إنْ آبَ مـن غـزْوةٍ أفنت أعـاديـه ... كـان الإيابُ لأخْرَى أعظم النَّسَب
سمـا إلى الشَّرَف الأقْصَى بهمَّتِـهِ ... ديـن مـريـحٌ وعـزْم دائمُ التَّعب

[31] وحينَ جلَّى تدلَّى فوْق أندلس ... وجَـارحُ الطَّيـرِ لا يَنْفكُّ عن كثَب
ملْكٌ إذا مـا دعتْـه الحرْبُ من بُعُـد ... طـار السَّفين أمام الجَحْفَل اللّجب
مـا بين مخضرَّة الأقْـطار نـازحـة ... وأخْضَرٍ في غِمار الرِّيـح مضْطَرِب
والجيشُ تختـطف الأرواح رَاحتُـه ... من سـابقٍ زبـد أو عـائـم دَرب
كـتـائبٌ صـفَّـهـا والآلُ أرديَـةٌ ... بيض فـأشبهَتِ الأسطارَ في لكتُب
دَاسَتْ جِبَال دِيار القيروان(4) فلَمْ ... يَثْنِ الأعنَّـةَ إلَّا وهْي كـالكُثُب
حتّى أنـاخ بـأمِّ الشـرك مـرضعـةً ... أولادَهـا حلبـا جمّـاً عَلى حلب
حسْنـاء يفتـر للخطَّاب مبسَمُهـا ... عن جَوْهَر السَّيْف لا عن مبسم شنِب
مَنيعـة من ذُرى سُـور تكنَّفـهـا ... وزاخِرٍ مُزْبِـدِ الأمْـواج من غضب
تغَلْغَلت في خِنـاق الجوّ صـاعدةً ... حتى حسبنـا مدارَ النَّجْم في صَبَب

(1) الطور: الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وقد ذكر بعض العلماء أنه الجبل المشرف على نابلس... ياقوت، معجم البلدان.

(2) الأبيات التي تحمل رقم 2 زادها المقري على المراكشي. الخامس ص 130 من نفح الطيب.

(3) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار - وهو ساحل البحر - ليلة، وبه كانت الوقعة المشهورة.

(4) القيروان: المدينة العظيمة الشهيرة التي مُصّرت في الإسلام على عهد معاوية بن أبي سفيان، الاستبصار ص 113-114.

وحِينَ غادرَها طولُ الحِصار لَها ... كأنَّها مركب أشفى عَلى العَطَب
ألقت إليك بأيْدي الذلّ طائعةً ... ومكنتك مِنَ المسْلوبِ والسلب
سَار العُلوج وفي أعْناقِهم منن ... من عَفْو مقتدِرٍ للغَزْو منتدب
مَدُّوا الأكفَّ لِلَمْسِ النَّجْم من فَرحٍ ... وشمَّروا لوُثوب البَحْر من طَرَب
خفَّتْ صِقليةٌ[1] جهْلاً فوقَّرَها[2] ... خَرْقُ الحُسَام وطيشٌ في القَنا السلب!
وشيَّعتْ مُلكها للحرْب مُحْتفلا ... لما دَعَتْ اختَها بالوَيْلِ والحرب
وإنَّما بعثَت من جَيْشِها نفلا ... ألقى نفائسَه في كفٍّ منتهب
صدرت بالعَرَب العَرباءِ وانقلبتْ ... عن الحُسامِ (رِياحٌ) شرَّ منقَلب
فكان سيفُك نقاداً لَهُ بَصَرٌ ... نَفَّى الزُّيوف وأبْقَى خالصَ الذَّهب
[32] ورَدَّ رأسَ زيادٍ[3] مالهُ جَسدٌ ... من مَارِنٍ بالدَّم المَوَّار مختضِب
ألقتْه عن ظهرها جرداءُ جامحة ... لو أنَّها مسحَت من خَدّه التَّرِب[4]
جَلَّى إيابُك عنَّا كل مظلمةٍ ... وأنِّس الدَّين من إيحاشِ مُغْتَرب
إن الجزيرَةَ مِنْ طُول انتظارِكمُ ... لَها بكلِّ طريقٍ لحظُ مرتقب
صافِحْ بتلك اليدِ البيضاءِ قبَّتَها ... فإنَّها أصبحَتْ مسودَّة الطُّنُبِ
وامْنَحْ جزيل العطايا حَانِياً ابداً ... على الحُماة حُنوَّ المُشْفِق الحَدِب
يَا وَافداً علقت من يُمْنِ مقدمه ... أيدِي الأماني بحَبْلٍ غَيْرِ منقضب
وَدَانياً لعُلاه منكِبٌ عَمَمٌ ... يُزاحِم النَّجْم في الآفاق والحُجُب

(1) صقلية: جزيرة تقع شرقي افريقية يحيط بها البحر اليوني شرقاً والبحر التيريني شمالاً والبحر الصقلي أو المتوسط جنوباً وغرباً، عاصمتها بلرم. مارتينو ماريومورينو، المسلمون في صقلية ص 1 - 2 - 3، امبيرتو ريزيطانو: مجلة المشرق (روما) عدد سبتمبر 1961.

(2) وقَّرها: بمعنى رزَّنها وثقَّلها، وهي تقابل (خَفَّت) بمعنى خف عقلها وحمقت فورَّتها خرق السهام.

(3) لم نهتد للمعنى الذي يقصد إليه الشاعر، ولعله يشير لمقتل محرز بن زياد الفارغي رئيس الاعراب بافريقية وأحد بني علي من بطون رياح، والمارن: الرمح الصلب اللدن.. فتكون المعنى أن رمح الخليفة أطاح برأس هذا المتمرد.

(4) اي أن مطية هذا المتمرد لفظت به عن ظهرها... ثم يتمنى على سبيل التهكم: «يا ليت هذه المطية استطاعت أن تزيح التراب عن خد هذا المتمرد المعفر بالثرى(؟)»

جمُّ المَواهب للزوّار مبتسمٌ ... يستغرب النَّاسُ وقتاً فيهِ لَمْ يهَب
ما بَيْن راحَتِه الطُّولى وخاطره ... يفيضُ بحْرُ النَّدَى بالعِلْمِ والأدَب
كأنما بِشْرُه والجُودُ متَّصِلٌ ... بَرْقٌ تألَّقَ فَوْقَ الرَّاكِب السَّرب
خليفة الله بَادي العلم مبتسمٌ ... عن جَوْهَرٍ من بديع النَّظْم منتخَب
قد أسْربت منه أثواب الصبا أرَجاً ... لولاه عَرْفُ نَسِيم الرَّوْض لَمْ يطِب
ألقتْ عُصَيَّ النَّوى أشياخُ قرطبة ... في منبت العِزّ والحاجاتِ والطَّلَب
أتتْك تَشْكرُ ما أوليتَ من نِعَمٍ ... وإنَّما أرَج النوار للسُّحب
تزداد نوراً إذا اسوَدَّ الزَّمان بِها ... كأنها سُرُج في حَالِك النُّوَبِ
والصَّبْر في كل خطبٍ طعْمُه صبر ... لكن عَواقِبُه أحْلى من الضَّرَبِ
جَرَتْ معارِفكم في النَّاسَ كلهم ... جَرْي الصّقال عَلى الهِنْدِيَّة القُضُب
ودُمتم تأخذُ الأيامُ زينتَها ... مِنْكم وَترْفُل في أبْرادِها القُشب!

[33] وعند إكمال هذه القصيدة بالإنشاد، تهلَّل وجه أمير المؤمنين رضي الله عنه لها ولحسن أغراضها وهزَّته أريحية المعارف بما فيها من الأوصاف وتبلج فلق مجده عن هبةٍ جزلة للقرشي الطليق، أبدت لقوله القبولَ وسفرت له عن وجه طليق.

وقام الشيخ أبو عبيد[1] الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي منشداً تالياً للقرشي المذكور في مجلس أمير المؤمنين رضي الله عنه بالجبَل المذكور وقال: (طويل)

تَلألأ من نُور الخلافة بَارِقُ ... أضاءَتْ به الآفاقُ واللَّيلُ غاسِق
وأشرقتِ الدُّنْيا بِهِ فكأنَّها ... مِنَ البِشر في كُلِّ الجِهاتِ مشارق
وهبَّ برَيَّاهُ النَّسِيم فخِلتُه ... بخبِّرنا أن الخليفة لاحِق

(1) كنَّاه كلٌّ من ابن عذاري وابن الخطيب أبا عبد الله ثم أورد الأول أربعة أبيات منها، بينما أورد الثاني البيتين الأولين. البيان المغرب ص 240 ـ أعمال الاعلام ص 306.

إلى جَبلٍ قدْ كانَ للفتحِ منْزِلاً ... ولاذَ بهِ بالفتحِ مُوسى[1] وطارق[2]
سما بأميرِ المؤمنين إلى العُلا ... مخافةَ أن تَسمو إليه العوائق
إذا أمَّ أرضاً للنزول تضوَّعت ... منابتُها مسكاً لمَن هُوَ ناشِق
وإن طالَتِ البيداءُ قصَّر بُعدَها ... حديثُ الأماني والرجاءِ المرافقُ
تكادُ الرُّبى تنحطُ عندَ لقائِه ... وتُسْرِع نهضاً للِّقاءِ السَّمالِقُ
فلَوْ شاء لم يرْكَب جواداً بجَحْفَل ... ولا حَملتْه في السفار الأيانِق
لهُ شرفٌ يسمُو به فتخالُهُ ... لذاكَ بَعيداً وهْو بالقربِ لاصِقُ
[34] مُجيبٌ لمن ناداهُ في يوم أزْمَةٍ ... رفيقٌ لمن قلَّتْ لدَيهِ المرافق
جَوادٌ إذا ضنَّ الغمامُ بوبْلِه ... وَصُولٌ إذا صدّ الصَّديقُ المُصادق
أزاحَ الرَّدَى عن مَنْ يلوذ بظلِّه ... وبث النَّدى فاسترزقته الخَلائِق
ففي ظلِّه أمنٌ مِنَ الخوف مانِعٌ ... وفي كفه بَحْرٌ من الجُودِ رازق
له شيمة ترتاح للبَذْلِ والنَّدى ... وكف لِتَفْليق الجَماجِمِ وامِق
تُقسِّم أجسامَ العداة سيوفُه ... ولُدْنٌ بأيدي الطاعنين بَواسق
وخيلٌ تسوق الأسدَ فوق مُتونها ... وَتسْبق لمح البَرْق والبرقُ خافِق
تخيَّرها التَّوفيق من كل ضامِرٍ ... وأركبها الأبْطالَ سَعْدٌ مُطابق

---

(1) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء المكنى أبا عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية، ونشأ موسى في دمشق فخدم بني مروان ونُبه شأنه ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ولَّاه افريقية وما وراءها من المغرب سنة 88 فأقام في القيروان... ووجه ابنيه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة، تم أمره بغزو شواطىء أوربة فزحف طارق واحتل سنة 92 جبل كالبي Calpe الذي سمي بعد ذلك جبل طارق..
الزركلي، الاعلام - الثامن ص 285-286.

(2) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء أصله من البربر وقد أسلم على يد موسى بن نصير، ولما تم لموسى فتح طنجة ولى عليها طارقاً سنة 89 فلما كانت سنة 92 جهَّز موسى جيشاً معظمه من البربر لغزو الأندلس وولى طارقاً قيادتهم فنزل البحر واستولى على الجبل وفتح حصن قرطاجنة وتغلغل في أرض الأندلس وحاربه الملك رودريك Rodrigo فقتله طارق وافتتح اشبيلية واستجة، وأرسل من استولى على قرطبة ومالقة، ثم احتل طليطلة (العاصمة)... ثم فتح مدينة سرقسطة واحتل طرطوشة وبلنسية وشاطبة ودانية. الزركلي، الاعلام، مجلد ثالث ص 313-314.

رِجالٌ ولكن في الحُرُوب ضَراغِمٌ ... وخَيْلٌ ولكن في السَّباق شَوائِق
قدِ انتخبُوا من نخبة العُرْبِ كلّها ... شبابٌ وخَلْقٌ كاملٌ وخَلائِق!
إذا عطشَتْ في الحرب افئدةُ العِدَى ... وَقد فرغوا للصَّبر وهو مُفارِق
سَقَوْهم بعَضْبِ السَّيف عضباً كأنَّما ... لَهُ من مُروق المُرْهَفات أمارق
وأسْمَرَ في كفيه أسْمَرُ نافذٌ ... وأبيض في كفَّيه أبيضُ فالق

ومنها:

بِسَعْدك يفري السَّيفُ ما عزَّ قطعه ... وينفذُ حد السَّهْم ما هُوَ راشق[1]
لَوْلاك لم يَقْطَع حسامٌ لضَارِب ... ولا فَتقَ الخطيُّ ما هُوَ فاتِق
ملكت قلوبَ النَّاسِ حبَّاً ورهبة ... فدَانَ بك الصِّنفانِ برٌّ وَفاسِق
فَلا ذُو يَدٍ إلَّا لأمْرِك ناصِرٌ ... ولا ذُو فَمٍ إلَّا لِشُكرك ناطِقُ
إذا هَمَّ أمراً لم يلحْ بحقيقةٍ ... وغابَ دليلٌ للتفهُّم صَادِق
[35] بدا من ضِياء العَقْل هدْيٍ يدُلُّه ... عَليْه ومن نور البَصيرةِ سَابِق
ومَن جَعَل التَّقوى سِراجاً لقلْبه ... أضاء ولم تُحجَبْ لدَيْه الحقائِقُ
.

ومنها:

فطاف بأرْضِ الكفْر حتَّى أعادَها ... إلى الحقِّ وانقادَ الأبيُّ المُشاقِق
وكرَّ إلى نَصْرِ الجَزيرة بَعْدَ مَا ... أتاهُ مَعَ الرُّكبانِ ناعٍ وناعِق
بجَيْشٍ تضيق الأرْضُ عنه بطُولها ... وترْهَبُه لو عاينته العَمالِق
وأبْيَض ورْديّ القميص كأنَّما ... تفتَّح فَوْق النَّصل منْهُ شَقائِقُ
تُجرِّدُه أيدي الأجِبَّةِ في الوَغى ... وتُغْمِدُه هامُ العِدَى والمفارق

ومنها:

ولما أثار النَّقع ليلَ عجاجه ... وقد حجبتْ فيه العُيونَ الرَّوامِق
تطلع من قَيْسٍ ضياءُ تلألأت ... لمطلعه آفاقُها والفيالِقُ

---

(1) في ابن عذاري: رائق ص 24.